(١٧)

(القراءة وتنمية التفكير)

نتناول هنا « تنمية التفكير » باعتباره أهم مكونات الإنسان فعلى الرغم من أهمية البعدين الآخرين في بناء الإنسان وهما البعد الوجداني والبعد الجسمي إلا أن الجانب العقلي يبقى أهم هذه الجوانب ؛ لأنه يناط به المسئولية الدينية والاجتماعية ، وعلى أساسه تتقدم الحضارة البشرية ، فقد ذكر علماء الأنثروبولوجي أن الذكاء الإنساني هو أساس حضارة البشر ، وعليه توقف انتقال الإنسان من عصر إلى عصر ، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى حتى وصلنا إلى عصر ما يسمى بعصر ما بعد الحداثة على حد تعبير الأستاذ السيد ياسين ذلك العصر الذي يتسم بثورة المعلوماتية ،

وسوف نتناول في هذه الكلمة أمرين مهمين متصلين ببعضهما أكمل اتصال ، وهما :

١- التفكير وعلاقته باللغة وبعملية التعلم .

٢- التفكير والقراءة .

أولاً : التفكير وعلاقته باللغة ، وبعملية التعلم :

العلاقة بين اللغة والتفكير علاقة وثيقة إلى حد أن أطلق أحد الباحثين على التفكير « الكلام الداخلي » "Internal Speech" وأضافه إلى فنون اللغة ، وأصبحت فنوناً خمسة هي : الاستماع والحديث والقراءة والكتابة وأخيراً يأتي التفكير الذي هو لُحمة وسائل فنون اللغة ، وهو جوهر اللغة ولبها ، وقد لخص أحد الباحثين العلاقة بني اللغة والتفكير في أن اللغة ذات بعدين بُعدٌ

لفظي وبعد فكري ، يصير البعد اللفظي في البنى الفوقية الكلمات والعبارات والجمل . والبنى التحتية : التفكير ؛ أي أن التفكير هو الوجه الآخر للغة ،واللغة هي الوجه الآخر للتفكير .

فقد ذكر أحد الباحثين أن الجانب الفكري يمثل النشاط اللغوي سواء لدى المرسل أو المستقبل ، وسواء لدى المتكلم أو المستمع ، أو لدى الكاتب أو القارئ فعلى سبيل المثال حين يود الشخص أن يخاطب شخصًا آخر فإنه أولاً ينوي أو يتجه إلى التواصل لغويًا مع الآخر ، ويختار بعد ذلك العبارات أو الجمل التي يود أن يستخدمها ، ويأتي أخيرًا الحديث اللغوي وفي هذه الحال ، يأتي الحديث أو الكلام وفي المقابل ينقل الحدث اللغوي في صورة ذبذبات صوتية إلى المستمع عبر الأثير ، ويحدد ما يسمى بالاستماع أو الإنصات ، ويلي ذلك الفهم ثم يلي ذلك التفسير أو التأويل أو أخذ القرار بالسكوت أو السرد على المتكلم ويقال مثل هذا عن مؤلف التواصل الكتابي والرسم التالي يوضح هذه النقطة :

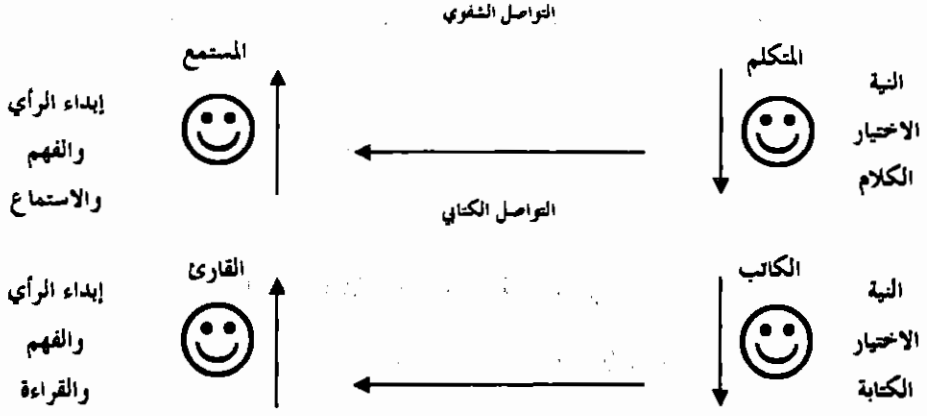

ويعني هذا أن التواصل اللغوي يعتمد أول ما يعتمد على التفكير ، لذلك يتجه التربويون منذ فترة ليست بالقصيرة إلى دعوة المعلمين إلى أن يطلبوا من تلاميذهم أن يتكلموا ـ فقط ـ عما يفهمون وألا يكتبوا شيئًا لا يفهمونه وأن

الخطوة الأولى في أي عملية تواصل لغوي هي التفكير فيما يقال أو يكتب قبل أن يفتح الفرد فمه ، أو يملك قلمه ، ويعاب دائمًا على الشخص أن يكون عقله في أذنيه ، وأن يكون في صورة مكررة ممن يسمع له أو يقرأ وبصفة عامة .

١- اللغة أساس عملية التفكير :

فهناك ارتباط كبير بين نمو الكلام ونمو التفكير ، والمعاني التي تمثلها الكلمات وهي المادة الخام التي يستخدمها العقل في عملية التفكير بصورها المختلفة ، ولذلك نرى الأصم وهو من فقد القدرة على سماع اللغة والتحدث بها لا يرقى فكره إلى المستوى المجرد من التفكير .

٢- اللغة تصاحب عملية التفكير :

تتشابه اللغة والتفكير في أنهما يتطلبان نفس العمليات الأساسية التي يعتمدان عليها ، وهي القدرة على التجريد والتصوير وتكوين الفئات والمجموعات ، وهي قدرات مطلوبة في استخدام اللغة والتفكير في مستوييهما العاليين . وفي الحقيقة يمكن القول : إن اللغة والتفكير عملية واحدة ، لقد كتب الفيلسوف الألماني « كانت» التفكير هو الكلام النفسي وأشار « والجسون» إلى أن التفكير استخدام غير صوتي للغة ، ولقد قال الشاعر العربي :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

٣- اللغة تعبر عن التفكير :

منذ الطفولة المبكرة تنمي الكائنات الإنسانية العمليات الداخلية التي تتمثل في الإحساسات والإدراكات وتختزنها في الذاكرة وتستوعبها فيما بعد حتى في حالة عدم وجود المثير الذي أدى أصلاً إلى هذه الإحساسات أو الإدراكات .

ورموز اللغة أو العمليات الداخلية التي توجد في رموز اللغة لدى الفرد يمكن باستمرار أن تشكل التفكير وتحدد اتجاهه ، وهي تمثل تنظيمات العمليات الداخلية المحصلة عن طريق التعلم أو الخبرات الماضية . يقول

«فيجوتسكي» في كتابه «اللغة والتفكير على لسان شاعر يدعى «مانداستام» حين نسيت الكلمة التي أردت أن أقدمها ، عاد فكري إلى دائرة الظلال .

إن العلاقة بين اللغة والفكرة علاقة قوية ، وهي تمثل علاقة جدلية يؤثر أحدهما في الآخر ، ويتأثر به فاللغة وسيلة أساسية لبناء المعارف والمفاهيم ، والأفكار ، وهذه وسيلة أساسية لتنمية القدرة اللغوية لدى الفرد لقد عبر «شيشرون» الخطيب الروماني الشهير عن هذه العلاقة الجدلية بقوله : «لا يمكن لفرد أن يكون بليغًا أو فصيحًا حين يتحدث في موضوع لا يفهمه» أي أن اللغة البليغة نتاج فكر واضح مفهوم ؛ ولذلك تعتبر العناية بالتفكير من أوليات أهداف تعليم اللغة ، بل تعليم المواد الدراسية المختلفة .

وقد شغل هذا الأمر بال كثير من المربين والفلاسفة والعلماء ، بدأ الحديث في هذا الموضوع «أفلاطون» حين ذكر أن العلاقة بين المعرفة والعقل علاقة فطرية ، بدأت حين كان الناس في عالم الذر ، وكانت الفيوضات الإلهية وحملت كل نفس معها قدرًا من المعرفة ووظيفة المعلم في هذه الحال هي إيقاظ العقل لتذكر ما كان يعرفه والتذكر لا يأتي إلا بالتكرار والتمرين والحفظ عن ظهر قلب "Rote Memory" وظلت هذه الفكرة سائدة في الأوساط الفلسفية والتربوية حتى أتى «بستالوتزي» الفيلسوف السويسري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (١٧٤٦- ١٨٢٧م) وأشار إلى أن العقل الإنساني عبارة عن صفحة بيضاء "Tabula Rasa" ، وأنه مجموعة من الملكات "Faculties"، وأن وظيفة عملية التدريس هي النقش على هذه الصفحة البيضاء، وإيقاظ الملكات بالحفظ والتكرار ، وما ليس لديه ملكة معينة لا يمكنه أن يتعلم . لقد كانت هذه الرؤية الجديدة بمثابة ثورة كبيرة على الاتجاه في المدرسة المثالية التي قادها أفلاطون وسيطرت على الأوساط التربوية عدة قرون أما «هاربارت» الفيلسوف الألماني الشهي (١٧٨٢-١٨٥٢م) فقد نفى أن يكون العقل مجرد صفحة بيضاء ، ينقش عليها المعلم ما يشاء ، ونفى أن

يكون العقل مجرد مجموعة ملكات ، تظهر بالتدريب والتكرار والتعلم القائم على الحفظ . لقد ذكر «هربارت» أن العقل الإنساني نظام نشط سيتقبل المدركات "Perceptions" عن طريق الحواس ويخضعها لمجموعة من العمليات تبدأ ـ ربما ـ بالتعرف والتذكر ، والإحاطة ، أو الفهم ، وتسير عملية الفهم ـ بعد ذلك ـ إلى منتهاها مارة بالجمع والتصنيف ، والفرز والنقد ، والتحليل ، والتركيب ، وأخيرًا بالإبداع والابتكار ، أو خلق شيء جديد لم يكن موجودًا من قبل ، ويظهر ذلك بوضوح لدى المخترعين ، وكبار المؤلفين ، والعلماء ، والفلاسفة ، وعلى هؤلاء يعتمد الجنس البشري في الارتقاء من مرحلة حضارية إلى مرحلة أخرى .

ومنذ ذلك الحين ـ منذ نهاية القرن التاسع عشر ـ اتُّجِهَ في التفكير إلى التركيز على الفهم ، وعلى تنمية جوانب التفكير ، وظهرت مصطلحات كثيرة في تدريس علم النفس التربوي وغيره مثل : الذكاء ، والقدرات العقلية ، والقدرات الطائفية ، والذكاءات المتعددة ، وما وراء المعرفة . . . إلخ .

وإذا كان الاهتمام بالتفكير وبتنميته قد ظهر مؤخرًا في الأوساط الفكرية والتربوية فإن الدين الإسلامي قد اعتمد اعتمادًا كبيرًا ـ علاوة على مخاطبة الوجدان ـ على مخاطبة العقل والفكر ، ودعا إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وربط بالعقل العلم والمعرفة ، والتدين ، وعبادة الله سبحانه وتعالى ، لقد صدق الإمام البوصيري حين ذكر في «البردة» :

لم يمتحنا بما تعيي العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

إن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تدعو إلى الاهتمام بالنظر والفكر أكثر من أن تذكر في هذا المقام ولكن يكفي أن نذكر من الآيات :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)

١٨١

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤)

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾

(الأعراف:١٨٥)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (الغاشية:١٧)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(ق:٣٧)

وينعي القرآن الكريم على هؤلاء الذين يتبعون من سبقهم ولو كانوا على ضلال ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف:٢٣)

وقد علق أحد المفسرين على قوله سبحانه وتعالى في أول ما نزل من القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) .

لقد بدأت الآيات بالقراءة وانتهت بالكتابة؛ والقراءة هنا تعني النظر والتفكير، والتدبر مستعينًا بالله سبحانه وتعالى الذي علم الإنسان وهداه بالفطرة إلى العلم، وإلى القلم الذي هو ـ مع القراءة ـ وسيلة العلم والمعرفة ، وقال أيضًا :

لقد وُلِدَ الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى ، لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط وكما لن يتحول من بعد أيضاً ، وكان هذا الحديث هو مفرق الطريق . وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ، ولا تطمسها الأحداث ، وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة ، ولم يجئ بعد تصور في مثل شموله ، وفصاحته وطلاقته من اعتبارات جميعًا مع واقعية وملاءمته للحياة الإنسانية .

وفي كتابه «التفكير فريضة إسلامية» ذكر «عباس العقاد» من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين ، وغير المسلمين ؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتًا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ ، اليسير قبل الرجوع في تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء . وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف .

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحدث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المذكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرح النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أنواعها وخصائصها ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يراد به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع إلى الذهن الإنساني من خاصية أو وظيفة وهي كثيرة .

ويقول «العقاد» في كتابه «الإنسان في القرآن» :

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ولعل مكانه في هذا القرن أوفق ، وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ؛ لأن القرون الماضية تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، ما مكان الإنسان من الكون كله؟ وما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائق الأحياء؟ . . . إلخ من الأسئلة ، وهي أسئلة لا جواب لها في غير عقيدة دينية تجمع للإنسان في صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها

المجهول ، وتجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة ، حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان .

ثانياً : التفكير والقراءة :

احتل موضوع القراءة مركزًا مرموقًا في مجال الدراسات التربوية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وما تزال تحتل هذا المركز ـ إلى الآن ـ وذلك بسبب إجماع كل المربين والمشتغلين بالتعليم على أن القراءة هي المدخل الرئيس للتعلم ، والمدخل الرئيس لرقي الشعوب بل ورفاهيتها ، بل ولارتباط القراءة بكل نشاط إنساني ، بل ولارتباط الريادة في المجتمع المعاصر بالقراءة ، فالشعب القارئ هو الشعب القائد ، وترتبط مكانة الفرد اجتماعيًا ـ في الغالب ـ بقدرته على القراءة .

من هنا تُخصَّص لبرامجه كثير من الأموال وتُخصَّص لبحوثه ـ أيضًا ـ كثير من النفقات ، علاوة على المشاريع التي تتبناها الدول من أجل التشجيع على القراءة ، وتنمية قدرات الفرد اللغوية في مجال القراءة ، وقد ظهر ذلك جليًا في برنامج القراءة للجميع وفي «مكتبة الأسرة» في مصر كما ظهر ـ أيضًا ـ في مشروعات القراءة للكل "Reading for all" في الولايات المتحدة .

وقد بدأت الدراسات العلمية في القراءة المبكرة في فرنسا وألمانيا قبل أن تبدأ في الولايات المتحدة بزمن قليل ، على أن بداية القرن العشرين شهد تطورًا واضحًا في بحوث القراءة وتعليمها ، وكان لجامعة «السيكاجو» دور واضح في تشجيع بحوث تعليم القراءة .

وبصفة عامة تؤدي القراءة عدة وظائف من أهمها تنمية الجانب الفكري ـ لقد ذكر كثير من الباحثين على رأسهم « والبس "Walpes":

أن القراءة تؤدي عدة وظائف للفرد وترتبط هذه الوظائف بالدافعية التي تدفع القارئ للقراءة ، وبالرضا الذي يحل به حين يقرأ ، وتتحقق هذه الوظائف ـ عادة ـ نتيجة للتفاعل بين خبرات القارئ ومحتوى الكتاب الذي يقرأه ؛ هذه الوظائف هي :

١- الوظائف المعرفية ، وقد يضاف إلى هذه الوظيفة الجانب العملي ، وتتعلق هذه الوظيفة ـ في الغالب ـ بالجانب الفكري أو العقلي وما يتطلب ذلك من كفايات نظرية أو أداءات عملية .

٢- الوظيفة الجمالية "Aesthetic" وهي تتضمن تذوق الجانب الجمالي في النص المكتوب وفي الأسلوب .

٣- الوظيفة الاجتماعية "prestige" ؛ وهي تتضمن الشعور بالذات ، وتقليل الشعور بالدونية .

٤- الوظيفة النفسية ؛ وهي تعني تقوية أو تنمية اتجاهات الشخص وميوله ، ومراجعة أفكاره ومعتقداته .

٥- الوظيفة الترفيهية ؛ وهي تعني الراحة والشعور بالسرور ومقاومة الاضطرابات النفسية ، وإرجاء وقت الفراغ في أمور مفيدة .

وإذا كانت الوظيفة المعرفية والفكرية أهم وظائف القراءة ؛ فإن الباحثين منذ مطلع القرن العشرين يحاولون أن يجيبوا عن مجموعة من الأسئلة المهمة مثل :

- هل القراءة فن استقبال فقط ؟

- ماذا تعني بالقراءة ؟

- ما العوامل الاجتماعية المختلفة التي أدت إلى تطور مفهوم القراءة ؟

وغير ذلك من الأسئلة المرتبطة بهذا الفن العظيم من فنون اللغة ، التي أنعم الله به على بني البشر .

هل يأخذ القارئ المعنى أو الدلالة مما يقرأ؟ أو هو الذي يعطي المعنى لما يقرأ؟ أو هو الذي يتفاعل مع النص؟ حقيقة الأمر أن القراء الضعاف يأخذون المعنى من النص ولا يبذلون جهدًا واضحًا لفهم النص أو تفسيره أو الاستنتاج. من ثمَّ يُطلَق على هذا النوع من القراءة : القراءة الببغاوية "Parrot Reading" . ولا ينسجم هذا النوع من القراءة مع تكوين المواطن القادر على اتخاذ القرار أو القادر على إبداء رأيه أو القادر على الإبداع ، أما القراء المتميزون فهم الذين يتفاعلون مع النص ويعطون المعنى لما يقرءون ، ويميزون الحقائق من الأباطيل ، ويقيمون الأدلة على انحياز الكاتب أو عدله أو استقامته ، وهذا هو المواطن التي تعمل كل الفلسفات التربوية الحديثة على تكوينه ، وقد ترتب على هذه النظرة اتجاهات مختلفة أو مفاهيم جديدة للقراءة ، ولنماذج تعلم القراءة ، ولدور القراءة في تنمية المواطن والمجتمع :

القراءة في أحدث تعريفاتها تعني عملية بناء المعنى من الخطاب اللغوي المكتوب ؛ أي أن القراءة في جوهرها عملية فهم وبناء المعنى الكلي من السياق اللغوي ، فإذا تمت القراءة دون فهم المعنى فإنها لا تعدو أكثر من مجرد نطق الأصوات وترديدها . هنا وجب الاهتمام بالجانب المعرفي في القراءة ، والجانب الفكري فيها ، وعموماً ترتبط القدرة العقلية العامة بالقدرة على القراءة ، كما ترتبط القراءة بالخبرات الثرية للفرد ، وبمقدار ما لديه من مفاهيم ومعارف ترتبط بالنص الذي يقرأه .

وفي النماذج الثلاثة التي تحدث عنها «ألبرت هاريس» في كتابه القيم «كيف نزيد من القدرة على القراءة» ذكر أن هناك ثلاثة نماذج للقراءة هي :

١- نموذج التركيز على الكلمة المكتوبة .

٢- نموذج التركيز على القارئ وخبراته .

٣- نموذج التفاعل بين الكلمة المكتوبة والقارئ .

كما ذكر أن النموذج الذي لقي ترحيبًا كبيرًا في الأوساط التربوية هو النموذج الذي يركز على قيم القارئ للنص وعلى خبراته السابقة ، وعلى معارفه ، أما النموذج الأول الذي يركز على المادة المطبوعة فلم تعد له أهمية في عصر يتركز اهتمامه على بناء عقل الفرد وتنمية إدراكه والنظر فيما حوله وفيمن حوله واتخاذ القرار المناسبة ـ علاوة على ذلك ـ لقي النموذج الثالث الذي يركز على كل من الكلمة المكتوبة والقارئ ترحيبًا مماثلاً لما لقيه النموذج الثاني الذي يركز على القارئ .

وخلاصة ما سبق أن القراءة ليست فن استقبال بحت ، وإلا أصبح القارئ عبدًا لما يقرأ ، يردد كل ما يقال دون اتخاذ موقف معين ، وللأسف تجد كثيرًا ممن حولك يغير آراءه باستمرار يلفت النظر ، وتسأله لماذا هذا التغير المستمر في الرؤى؟ فيقول : ألم تقرأ ماذا كتب فلان؟ ألم تقرأ ما كتب علان؟ وهكذا كأن الفرد القارئ ما هو إلا إناء يصب فيه الكاتب ما شاء من أفكار أو ينقش في عقله ما تشاء من مفاهيم ، والمصيبة الكبرى التي تصيب شعبًا من الشعوب أن يصبح عقله في أذنيه ، ولعل ما ذكره أحمد شوقي في «مصرع كليوباترا» حين أشيع أنها قد انتصرت هي وحبيبها في معركة «أكتيوم» وقد كان هذا كذبًا واضحًا .

ولم يكتف الباحثون في مجال القراءة بالوقوف عند مستوى النقد والاستنتاج في القراءة بل تطور الأمر إلى ضرورة أن تكون القراءة وسيلة للابتكار والاختراع ولن يأتي ذلك إلا بأن يقرأ الشخص الموضوع الواحد في أكثر من مصدر ، وأن يقارن بينها ، وأن يعرف المختلف والمؤتلف ، وأن يخرج برؤية خاصة ، وأن يبرهن عليها ، وأن يحل المشكلات التي تواجهه في ضوء ما توصل إليه ، وأن يربط بين فكره والواقع ، وأن يحول الفكر إلى عمل وأن يصل في النهاية إلى ما يمكن أن يطلق عليه «الاختراع» أو «الابتكار» .

وقد كانت شرارة البداية في هذا الاتجاه هو إطلاق الروس للقمر الصناعي «سبوتنيك» ولذلك اتجه الأمريكان إلى ما يسمى بالقراءة الابتكارية "Creative Reading" من أجل أن يكون المواطن الأمريكي قادراً على الإبداع ولن يتأتى هذا إلا بالقراءة الابتكارية التي تعني أول ما تعني تكوين الرؤية الخاصة للقارئ فيما يقرأ ، والقدرة على المقارنة بين أكثر من نص في موضوع واحد ، واستنتاج الزيف والصواب مما يقرأ ، والقدرة على التركيب والبناء ، وكل هذه قدرات يتطلبها الإبداع والاختراع ، والسبق في مجال التكنولوجيا الصناعية والفضائية وغيرهما . . . .

لقد ذكر «هاري جرين» في كتابه المهم «تعليم القراءة في المرحلة الابتدائية»: القراءة ... القراءة .. . القراءة . . . وهل هناك ما يعلوها شأنًا في رقي الأمم وحضارتها؟ وأي أمة لا تعطيها حقها فإنما هي تتنكب الطريق ، وتعطي ظهرها للحركة القوية للتاريخ ، وما من عالم كبير ولا مخترع عظيم إلا كانت وسيلته إلى العلم والاختراع القراءة الناقدة ، والقراءة الإبتكارية ومن أشهر الأدلة على ذلك قصة مخترع التليفزيون «فيلوفرانس وورث» "Philo Frans Worth" في أوائل عشرينيات هذا القرن ، لقد كان «فيلو» تلميذًا مجتهدًا ومحبًا للقراءة ، لقد قرأ كل ما في مكتبة المدرسة الثانوية عن الصوت والضوء وعن كل ما يتعلق بالسينما الصامتة في ذلك الوقت لقد كان الشاغل الأكبر لـ«فيلو» أن يضيف إلى السينما الصامتة التي تعتمد على الإشارات والحركات الصوت الذي يوضح للمشاهدين ما يرونه من حركات ومناظر أي تجمع بين الصوت والصورة وهو ما يقوم به التليفزيون حاليًا ، وفي النهاية استطاع «فيلو» أن يصل إلى مراده بالقراءة الابتكارية وبالوعي بالأبعاد المختلفة للمخترع الذي يبحث عنه ، وبمساعدة من حوله من مدرسيه ومن رجال الأعمال الذين تبرعوا له بالمال كي يتفرغ لما يبحث عنه .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو :

هل نتوقع أن توجد أمة مبدعة أو منتجة دون قراءة؟ هل يمكن أن تسمى دولة ما نفسها دولة عصرية ولا يقرأ أبناؤها؟

في المؤتمر الثالث والأربعين للجمعية الدولية للقراءة كان المحور الرئيس للمؤتمر هو القراءة ؛ لأنها الباب الرئيس للتفاهم الدولي ، والقراءة ـ علاوة على ذلك ـ هي الباب الرئيس للإبداع .

والإبداع طريقة للتفكير والعمل معًا أو إيجاد شيء يتسم بالأصالة ، وله أهمية من وجهة نظر الآخرين ؛ ويعني هذا أن أي طريقة جديدة لحل مشكلة ما أو استحداث منتج معين أو بناء قصيدة أو قطعة موسيقية عمل ابتكاري طالما كان ذلك من اكتشاف الشخص بداية .

وعندما يبتكر شخص شيئاً فإن هناك عنصرين لابد من توافرهما ، وهما :

١- اكتشاف ، اكتشاف فكرة ما ، أو خطة أو حل مشكلة .

٢- البرهنة على صحة هذا الاكتشاف وإمكانية تنفيذه ، وكل عنصر من هذين العنصرين يتضمن مهارات معينة مثل :

- التخيل .
- تدوين الأفكار .
- مناقشة الأفكار .
- تقويم الأفكار .
- تعرف إمكانية التنفيذ .
- التنفيذ باستخدام منهج مناسب .

وتعتمد كل هذه العناصر على الخبرات السابقة في المجال الذي تم فيه الاكتشاف ، والعامل الحاسم في تراكم الخبرات وتنوعها هو القراءة .

ولقد كان لعلم النفس المعرفي وعلم نفس النمو أثرهما البعيد في بناء النماذج المتعددة والأشكال المختلفة لعملية القراءة .

كذلك كان لعلم النفس اللغوي واللغويين أثر كبير في تحديد ما يطلق عليه «القراءة» لقد حاول أصحاب هذه العلوم أن يعرضوا تحليلاً مفصلاً وخطوة بخطوة لعملية القراءة والعوامل المؤثرة فيها يقول «ديفيد بيرسون " David Person" في عام ١٩٨٥م أن هناك ما يسمى بثورة الفهم "R .C" التي تتلخص في الانتقال من الرؤى التقليدية للقراءة القائمة على المدرسة السلوكية إلى الرؤى القائمة على علم النفس المعرفي ؛ إذ تناول علم النفس المعرفي هذه الجوانب المختلفة في عملية القراءة :

١- التعريفات القديمة والحديثة لعملية القراءة .

٢- نتائج الدراسات في علم النفس المعرفي المتعلقة بالقراءة أو التعلم .

٣- خصائص القراء الضعاف والمجيدين .

٤- المعالم الأساسية في بحوث القراءة .

٥- خصائص بيئات التعلم والتعليم المساعدة على التعلم .

٦- أدوار المدارس والجامعات في تنمية عملية القراءة .

إن الفهم في القراءة ـ في نظر علم النفس المعرفي ـ ينتج من التفاعل بين القارئ والاستراتيجيات التي يستخدمها القارئ ، والمادة المقروءة ، والسياق الذي توجد فيه القراءة ، وبتعبير آخر لا يوجد المعني في الكلمات المقروءة ، إنما القارئ هو الذي يبني المعني بالاستنتاجات والتفسيرات التي يقوم بها .

إن المعارف التي تُخزَّن في الذاكرة على مدى طويل تدعى البيئي المعرفية «وهي ترتبط كمعارف سابقة بالمعارف الجديدة المرتبطة بموضوع معين ، وهذه كلها ترتبط بالاستراتيجيات التي يستخدمها المعلم» .

ومن المهم أن نعلم أن مستوى المعنى لدى القارئ يعتمد ـ إلى حد كبير ـ على ما يدعي باستراتيجيات ما وراء المعرفة ؛ وهي تعني قدرة القارئ على التفكير في عملية القراءة والسيطرة عليها وضبطها ، وبتعبير آخر (التخطيط

للقراءة وتوجيه الفهم ومراجعة استخدام الاستراتجيات والفهم ، ويرتبط مستوى المعنى أيضاً بخصائص القارئ ومعتقداته والجهد المبذول ، والمسئولية) .

وتُعرَّف «ما وراء المعرفة» في القراءة بأنها : التفكير في عملية التعليم وتنظيمها من أمثلة أنشطة ما وراء المعرفة ما يلي :

- تقويم ما يعرفه القارئ عن الموضوع المقروء قبل القراءة .
- تحديد المطلب الأساسي للتعلم .
- تحديد الاستراتيجيات الخاصة للقراءة والتفكير .
- تحديد ما هو مطلوب تعلمه .
- تحديد ما فهم وما لم يفهم في أثناء القراءة .
- التفكير فيما هو مهم وما هو غير مهم في العرض .
- تقويم مثالية استراتيجيه القراءة والتفكير .
- مراجعة ما عرف .
- مراجعه الاستراتيجية .

وهناك عدد لا يحصى من استراتيجيات ما وراء المعرفة منها :

- تنشيط المعرفة السابقة .
- استراتيجية النشاط الذاتي .
- استراتيجية التنبؤ .
- استراتيجية تحديد المطلب التعليمي .
- استراتيجية العصف الذهني .
- استراتيجية قراءة الأتراب .
- استراتيجية التلخيص .
- استراتيجية السؤال والجواب .

وغيرها من الاستراتيجيات التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين استراتيجية لدى أحد الباحين الشبان (إبراهيم بهلول) في دراسته : اتجاهات حديثة في استراتيجيات ما وراء المعرفة .

والخلاصة : إن القراءة في رأى علم النفس المعرفي تتميز بما يلي :

١- يعتمد تعلم القراءة على مستوى النمو اللغوي للمتعلم .

٢- يستخرج المعلم بنفسه المعنى ، أو يقوم ببنائه .

٣- يقع العبء الأكبر على المتعلم في عملية تعليم القراءة .

٤- الدافع الذاتي لدى المتعلم وهو موجه ذاتيًا .

٥- يعتمد التعلم على المتعلم .

٦- يركز التعلم على استراتيجيات ما وراء المعرفة .

٧- عملية التعليم كلية ومنظمة .

٨- يتجه التعلم إلى أسلوب حل المشكلة .

٩- يتصل الفهم الفعال للتعلم بالمعرفة السابقة والخبرات .

وتختلف هذه السمات كليًا مع سمات القراءة من وجهة نظر المدرسة السلوكية ؛ إنما المهم أن نذكر أن للقراءة ارتباطًا قويًا بالمتعلم ؛ دافعية ، وخبراته ، وفوق ذلك كله قدراته العقلية ، التي هي أساس الحضارة الإنسانية والقراءة بهذا مسئولية عن تغيير العالم ، ولعل من أجمل ما قرأت عن هذا ما كتبته مؤسسة «سكوت فورسمان» "Scott Foresman" للنشر والتوزيع في معرض الكتاب للمؤتمر الدولي للقراءة الذي عقد في «سنتياجو» عام ١٩٩٧م تحت عنوان «سوف أغير العالم» تقول :

- سوف أغير العالم بطفل في وقت ما .

- سوف أعطي الطفل هدية لا تنتهي لذاتها أو ثمرتها أبدًا .

- هدية تجعل العالم بين يديه .

- وتجعله العالم بين يديه .

- وتجعله ـ أيضًا ـ أثرى وأحلى .

- هدية هي القراءة .

- سوف أفتح العينين ، وأوقظ الأحلام بالقصص التي تجعل الأطفال يشعرون وينمون ويفكرون .

وبعد ذلك يقول الطفل : لا شيء يوقفني ، ولن أسلو القراءة ؛ لأن قلبي يعرف معنى القراءة ، ويعرف أي قوة هي !

وفيما يلي نقدم التوصيات المرتبطة بالقراءة وتنمية التفكير :

من مجموع أنشطة المؤتمر ؛ من ندوات وجلسات البحوث والمناقشات يمكن أن تطرح التوصيات الآتية :

١- التأكيد على العلاقة بين القراءة والإبداع ، وتوجيه الجمهور نحو إيجاد أجيال قادرة على ترجمة القراءة إلى إنتاج مبدع .

٢- تجاوز حدود ما تقدمه المعرفة التقريرية ، أو التصريحية ، والاهتمام بالمعارف الإجرائية ، وتزويد أبنائنا بالمواد المقروءة التي تتخطى حدود التقرير ، وتدريبهم على توظيف ما يقرءون في مواقف عملية متنوعة .

٣- ضرورة توعية معلمي المواد الدراسية المختلفة بأن لهم أدوارًا قد لا تختلف كثيراً عن تلك التي يقوم بها معلمو القراءة ، ثم تدريبهم على ممارسة تلك الدوار ؛ إذ إن النجاح في فهم نصوص تلك المواد يتبنى في المقام الأول على القدرة القرائية .

٤- تنويع مستويات المواد المقروءة داخل المؤسسات التعليمية ، حتى تستطيع تلك المواد أن تلبي متطلبات الفروق الفردية بين المتعلمين .

٥- تضمين كتب القراءة نصوصًا أدبيةً وعلميةً أصيلةً ، يتم اقتباسها من مصادرها الأصلية دون التدخل عن عمد فيها ، بهدف تدريب الطلاب على القراءة المتعمقة والعملية .

٦- تدريب المعلمين على استخدام استراتيجيات تنمية الفهم القرائي وخصوصاً استراتيجيات ما وراء المعرفة ، وهي استراتيجيات تمكن الطلاب أو القراء من مراقبة عمليات الفهم وتقويم بعض مشكلاته .

٧- التأكيد على أهمية المداخل التشاركية في القراءة ؛ نظرًا لأنها تنطلق من رؤى بنائية ، كما أنها تسهم في التقليل من هيمنة الكتاب المقرر ، وتتيح للمتعلمين الفرص للقيام بأدوار أكثر استقلالية .

٨- توجيه الجهود نحو تذويب الفواصل بين العلوم المختلفة ، والتأكيد على أهمية العلوم البيئية في تطوير بحوث القراءة ، فليس بمقدور مجال تعليم القراءة أن ينمو وأن يتطور من تلقاء نفسه ، وإنما يحتاج أن يستند على عدد متنوع من العلوم التي بمقدورها أن تمده بأسباب الحياة .

٩- إجراء المزيد من الدراسات التي تستهدف استكشاف ما يقرأه أبناؤنا ومتوسط الوقت الذي يستغرقونه في القراءة يوميًّا .

١٠- تبني المنهج المنظومي في تناول المعارف وتدريسها ، حتى يكون بمقدورنا أن نستكشف الظواهر وندرس دراسة أكثر واقعية وصدق ، كما أن علينا أن نتخلى عن المناهج الخطية التي تختزل الظواهر على نحو غير واقعي .

١١- التأكيد على دور القراءة في إعداد أجيال من الباحثين في المجالات المختلفة .

١٢- الربط بين التراث الفكري والتربوي العربي ، وما لدينا من نظريات تربوية حديثة ، وذلك في مجال تعليم القراءة وعملياتها .

١٣- توسيع النظرة إلى الإبداع ، وعدم قصره على فئة بعينها ، والسعي إلى تنميته لدى أبنائنا ، فبمقدور التربية أن تستثمر قدرات الأبناء .

١٤- قبول مبادرات التلاميذ ، فهم قد أتوا إلى المدرسة بخبرات واسعة ومستويات متباينة ،وهو أمر يتيح لهم فرصًا أوسع من الحرية والإبداع؛ فمصادرة آرائهم ، ومحاصرة تفكيرهم قد تقودهم إلى التقوقع والتفكير التقاربي .

١٥- لم تعد المناهج هي المصدر الوحيد في تنشئة الأجيال ، ومن ثم فإن علينا أن نسعى لإشراك كافة المؤسسات الاجتماعية في تحقيق أهدافنا التربوية .

١٦- ضرورة تنمية التذوق الأدبي لدى الطلاب لإكسابهم مهارات تحليل النص القرائي والتفكير فيه .

١٧- الاتجاه بالقراءة إلى أن تكون فن إنتاج أكثر منها فن استقبال بمعنى أن يكون لدى القارئ القدرة على بناء نص جديد موازٍ لما يقرأه .

١٨- العمل على إعداد مواد قرائية متنوعة في مراحل التعليم المختلفة تساعد الفرد على تنمية قدراته العقلية والإبداعية ليصبح قادرًا على التحليل والتفسير والتركيب . . . إلخ .

١٩- تدريب المسلمين على استخدام استراتيجيات حديثة في تعليم القراءة تساعد الطلاب على توجيه قراءاتهم وضبطها وتعديلها وتقويمها .

١٩٥

٢٠- تضمين المقررات الأكاديمية لبرامج إعداد المعلم كنماذج لتنمية مهارات التفكير الإبداعي والناقد .

٢١- ضرورة الإسراع في إنشاء عيادات القراءة والبدء في إنشاء قاعدة البيانات اللازمة لذلك ، وفي هذا الصدد تقترح الجمعية ما يلي :

أ- تكوين فريق عمل من السادة الأساتذة والباحثين المهتمين لعمل قاعدة البيانات الخاصة بذلك .

ب ـ الاستعانة بالخبرات الأجنبية في مجال عيادات القراءة لتدعيمها .

٢٢- القيام ببحوث ميدانية مشتركة بين أعضاء هيئة التدريس في الوطن العربي وإعلان نتائجها ومحاولة تطبيقها وتعميمها .

* * *